

رجعت من الجنازة بعد أن غبرت قدميّ ساعة في الطريق التي تراب وأشعة، هي زوجة صديق طحّطّتها الأمراض ففرقّتها بين علل الموت، وكان قلبه يحبها فأخذ يهلكها، حتى إذا دنا أن يقضي عليها - رحمها الله -، ومن ذا الذي مات له مريض بالقلب ولم يره من قلبه في علته كالعصفور التي تهلك تحت عيني ثعبان، أما قلبه فهي الثمانين أو فوق ذلك، وأكمل النساء عندي ليست هي التي ملأت عينيها من الكتب فهي تنظر إلى الحياة نظرات تحل مشاكل وتخلق مشاكل، ولكنها تلك التي تنظر إلى الدنيا بعين متلائمة بنور الإيمان تقرّ في كل شيء معناه السماوي، وتأخذ ما تُعطى من يد خالقها رحمةً معروفة أو رحمةً مجاهلة، ومشيت من البيت الذي أبسطه الميتة معنى القبر إلى القبر الذي أبس الميتة معنى البيت، وأنا منذ مشيت في جنازة أمي - رحمها الله - لا أسير في هذا الطريق مع الأحياء، فأتابع من الميت صديقاً ليس رجلاً ولا امرأة، وتصبح للأرض في رأيي جغرافية أخرى، عمي الناس عنها لشدة وضوحها، كالألوهية خفيت من شدة ما ظهرت. يقولون: إن ثلاثة أرباع الأرض يغمرها البحر، أما أنا فأرى في تلك الساعة أن ثلاثة أرباع الأرض لا يغمرها البحر الذي وصفوا، هو ذلك البحر الترابي العظيم المسمى (المقبرة). هي مازا - ويحكم. أيها المغوروون، أفلاترون هذه الصلة الدائمة بين بطن الأم وبطن الأرض؟ لعمري كيف تجعل هذه الحياة للناس قلوبًا مع قلوبهم في حسّ المرأة بقلب، ويعرف معرّة الإثم فيائم، ما في ذلك شك، ولكنه في الطريق لا يعمل إلا عمل من قد فرّ من ربّه. هبّت الريح في السحر على روضة، غناء فطابت لها، فعقدت عقدتها أن تتخذ لها بيتاً في ذلك المكان الطيب لتقيم فيه، وتحلم بالقرار في البيت وهي لا تملك بطبيعتها أن تقف. يا لها من حكمة سامية، لا يسكنها من المعنى إلا أسف ما في الحُمق. هَمَّدَ الْحَيُّ وانطفأت عيناه، من عمله إما مُبصّرة، أو كالعمياء، أقيمت بليل وما أعجب أن يجلس أهل المأتم في المأتم ليحضّوكوا، ويلعبوا. إن هذا الحاضر الذي يمر فيكون ماضيك في الدنيا هو بعينه الذي يكون مستقبلكم في الآخرة، لا تزيدون فيه ولا تنقصون، من العظام إلى الفقراء، ولكنها تنقلب في الآخرة، فتبدأ من الفقراء إلى العظام، وأنتم ترسمونها بخطوط المطامع والحظوظ، ويرسمها الله بخطوط الحرمان والمجاهدة، ومن يدرى؟ لعلنا ونحن نلحد للموتى، وأننا مدفونون في القبر الذي يسمونه =الكرة الأرضية+! وهل الكرة الأرضية من اللانهاية إلا حفرة ب الرجل نملة لتدفن فيها نملة. وله خمسةأطفال، لو أنهم هم الذين انزعوا من أمهم لترك كلّ واحد على قلبها مثل المكواة المحمي عليها في النار إلى أن تحرّم، ولكنّ أمّهم هي التي نزعـتـ منهم، فكان بقاوـهمـ في الحياة تخفيـفاً لسـكرةـ الموتـ عليهاـ، وـقالـتـ: إنـهاـ تـسمعـ أحـلامـهـ، وـكانـواـ هـمـ عـقلـهاـ فيـ ساعـةـ الموـتـ! تـبارـكـ الذـيـ جـعـلـ فـيـ قـلـبـ الـأـمـ دـنـيـاـ مـنـ خـلـقـهـ هوـ، وـكـانـهـ ثـمـانـيـةـ أـرـطاـلـ، جـاءـ إـلـيـنـاـ كـمـاـ يـجـيـءـ الفـزـعـ لـقـلـوبـ، فـتـنـاـولـ مـنـدـيـلـهـ، وـمـسـحـاـ بـيـدـهـ الصـغـيرـةـ، وـلـكـنـ روـحـهـ اليـتـيمـةـ تـأـبـيـ إـلـاـ تـرـسـمـ بـهـ الدـمـوعـ عـلـىـ وجـهـهـ مـعـانـيـ يـتـمـهاـ. وـظـهـرـ الانـكـسـارـ فـيـ وجـهـهـ يـعـبرـ بـبـلـاغـةـ، أـنـهـ قدـ أـحـسـ حـقـيقـةـ ضـعـفـهـ وـطـفـولـتـهـ بـإـزـاءـ المصـبـبةـ التـيـ نـزـلتـ بـهـ، وـجـلـسـ مـسـتـسـلـمـاـ تـرـجـمـ هـيـئـتـ مـعـانـيـ هـذـهـ الـكـلـمـةـ: (رـفـقاـ بـيـ). ثـمـ تـطـيرـ مـنـ عـيـنـيـ نـظـرـاتـ فـيـ الـهـوـاءـ، ثـمـ يـرـخـيـ عـيـنـيـ فـيـ إـغـماـضـ، كـأنـماـ يـرـجـوـ أـمـهـ فـيـ طـوـيـتـهـ! وـلـاـ يـصـدـقـ أـنـهاـ مـاتـ، ثـمـ يـعـودـ إـلـىـ وجـهـهـ الانـكـسـارـ وـالـاسـتـسـلـامـ، وـيـتـمـلـمـلـ فـيـ مـجـلـسـهـ، أـحـسـ - وـلـاـ رـيـبـ - أـنـهـ قدـ ضـاعـ فـيـ الـوـجـودـ لـأـنـ الـوـجـودـ كـانـ أـمـهـ. وـلـمـسـ خـشـونـةـ الـدـنـيـاـ مـنـذـ السـاعـةـ، فـيـ أـحـدـ، وـلـيـسـ لـأـحـدـ أـمـانـ. وـلـبـسـتـهـ الـمـسـكـنـةـ لـأـنـ لـهـ شـيـئـاـ عـزـيزـاـ أـصـبـحـ وـرـاءـ الـزـمـانـ فـلـنـ يـصـلـ إـلـيـهـ. وـلـبـسـتـهـ الـمـسـكـنـةـ لـأـنـهـ صـارـ وـحـدـهـ فـيـ الـمـكـانـ كـمـاـ هـوـ وـحـدـهـ فـيـ الـزـمـانـ. ثـمـ تـغـرـغـرـتـ عـيـنـيـاـ، فـيـخـرـجـ مـنـدـيـلـهـ، وـلـكـنـ روـحـهـ اليـتـيمـةـ تـأـبـيـ إـلـاـ تـرـسـمـ بـهـ الدـمـوعـ عـلـىـ وجـهـهـ مـعـانـيـ يـتـمـهاـ. وـنـهـضـ، الصـغـيرـ وـلـمـ يـنـطـقـ بـذـاتـ شـفـةـ، نـهـضـ يـحـمـلـ رـجـولـتـهـ الـتـيـ بدـأـتـ مـنـذـ السـاعـةـ. اـنـتـهـتـ - أـيـهـاـ الطـفـلـ الـمـسـكـيـنـ - أـيـامـكـ مـنـ الـأـمـ